

التاريخ والوعي عند جادامر

د/ ناهد إبراهيم محمد (*)

يكتب هانز جورج جادامر Hans Georg Gadamer * فيقول: "إن فكرة عقل مطلق غير ممكنة للإنسانية.. فنحن نلتمس العقل فقط من خلال مصطلحات عينية وتاريخية، إنه ليس سيداً لنفسه؛ ذلك أنه يبقى باستمرار معتمداً على الظروف المعطاة التي يعمل من خلالها"^(٢).

فالتاريخ في نظره هو الذي يؤثر دوماً في الإنسان، والعقل الإنساني يتشكل من خلال ظروف تاريخية واجتماعية، ومن ثم فإنه ليس هناك عقل مطلق يتحكم في سير التاريخ، وبشكل لحظاته كما هو الحال عند هيجل الذي ذهب إلى أن العقل هو الذي ينظم حركة التاريخ؛ وذلك نظراً لأن لحظات التاريخ كلها هي بمثابة أحوال وتغيرات عن فكرة كلية تغترب عن نفسها ثم تعود إلى ذاتها من جديد.

إن فنحن أمام مفهومين مختلفين: الأول منهما يعطي الأولوية للحظة التاريخية على العقل الإنساني، وبالعكس يعطي الثاني تلك الأولوية للعقل على اللحظة التاريخية؛ الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن كيفية تأثير التاريخ على العقل عند جادامر لا عن أهميته لديه. فقد أثبت هذا المفكر تلك الأهمية من

(*) باحثة في الفلسفة المعاصرة.

♦ هو من أهم الفلاسفة المعاصرين، وقد اشتهر بفلسفته الهرمينوطيقية Hermeneutical philosophy تلك التي عرضها في مؤلفاته ومقالاته الكثيرة التي يأتي على رأسها في الأهمية مؤلفه الشهير "الحقيقة والمنهج".

(٢)- Gadamer, truth and Method, P. ٢٤٥.

خلال شغله الشاغل وهو الهرمينوطيقا^{**}. التي تحولت على يديه من مجرد فن لتفسير النصوص، أو منهج للعلوم الإنسانية يميزها عن العلوم الطبيعية - إلى فلسفة تعرض للوجود الإنساني بوصفه وجودًا تاريخيًا. بل إن ثمة ما يدفعنا إلى التساؤل أيضًا عن كيفية تعامل جادامر - في فلسفته الهرمينوطيقية تلك - مع تراث فلسفي مثل فلسفة هيغل التي تجعل الأولوية للعقل على ما عداه. فهل ما عرضه جادامر، في هذه القيود، هو فقط في إطار تأثر العقل بالتاريخ، أم أن هناك فاعلية أيضًا للعقل إزاء التاريخ ؟ تلك تساؤلات نحاول أن نجيب عنها....

الفلسفة الهرمينوطيقية عند جادامر:

يقارن جادامر بين ما قدمه من هرمينوطيقا وبين ما سبق أن قدمه فلاسفة آخرون عنها من أمثال شلايرماخر Schleiermacher وديلتاي Dilthey. فهذان الفيلسوفان من جهة نظر جادامر قد أضافا طابعًا سيكولوجيًا للهرمينوطيقا. فبعد أن كانت للهرمينوطيقا، في القرن السادس عشر وما تلاه، مجرد فن أو أداة لتفسير ما غمض من الكتاب المقدس لقارئيه - تحولت بعد ذلك إلى فن لتفسير النصوص، إذ بها مع شلايرماخر، في أواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، تكتسب بُعدًا أعمق. فلقد أضاف إليها هذا الفيلسوف بُعدًا سيكولوجيًا، حيث رأى أن تفسير نص ما لا يقتصر فقط على الوقوف على مجموعة من القواعد اللغوية المتحكمة في النص، بل إنه يمتد ليشمل ما يعتمد في ذات المفسر نفسه بإزاء النص، فعلى المفسر أن يسترجع لحظة الإبداع التي عاشها المؤلف وقت تأليفه النص، وأن يحاول بالتالي تقمص

^{**} الهرمينوطيقا Hermeneutic لفظ مشتق من الفعل اليوناني Hermeneuein بمعنى يفسر، وهو لفظ يرجع أساسًا إلى لفظ Hermes وهو إله من آلهة الأوليمب الذي كانت مهمته أنه مبعوث الآلهة، ونقل رسائلها. في ذلك انظر :

(Harvey, Van, A: Hermeneutics, art in the Encyclopedia of Religion, Vol. 6. P. 279)

دوره، أو عليه أن ينظر بشكل أشمل إلى النص - كما ذهب دلتاي بعد ذلك - بوصفه ينم عما يدور في ذهن المؤلف من معانٍ وأفكار، وما يعبر عن تكوينه الفكري والنفسي.

ولا يوافق جادامر على ذلك الجانب السيكلوجي. فتفسير نص ما وفهمه لا يتطلب من المفسر تَقْمُصَ لحظة إبداع المؤلف لنصه، ولا يتطلب كذلك إمعان النظر فيما ينطوي عليه النص من معانٍ ودلالات تعبر عن تكوين المؤلف الفكري والنفسي. إنه يتطلب - وبشكل أبسط - الاهتمام بموضوع النص نفسه (1)، غير أن الطابع السيكلوجي للتفسير لا يمثل نقطة الخلاف الوحيدة بين هرمينوطيقا كل من شلايرماخر ودلتاي، فعلى الرغم من أن جادامر قد احتفظ بالأهمية التي أولاها هذان الفيلسوفان للحظة التاريخية، والتي أولياها بالتالي للخبرة المعاشة، فإنه لم يوافق، من جهة أخرى، على ما سعى إليه من الجمع بين تلك الخبرة المعاشة وما تشكله من فهم للحياة، وبين السعي لإكساب ذلك الفهم understanding نفسه الموضوعية، وذلك بالنظر إليه كمنهج للعلوم الإنسانية دون غيرها من العلوم الطبيعية التي تتخذ من الشرح explanation منهجاً لها على نحو ما يذهب دلتاي.

ذلك أن الاختلاف بين هذه العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية لا يركز فقط على طبيعة موضوعاتهما: (الروح والفردى والنفسانى) بالنسبة للعلوم الإنسانية، و(الطبيعة والكلى والفيزيائى) بالنسبة للعلوم الطبيعية، بل إنه يركز أساساً على تناول هذين الطائفتين من العلوم لموضوعاتها. فبينما تعول العلوم الإنسانية على ما هو باطنى داخلى، فإن العلوم الطبيعية تركز على ما هو خارجى. "قالهم فى العلوم الإنسانية متضمن فى العودة مما هو خارجى outwardness إلى ما هو داخلى inwardness - وبشكل أكثر تحدياً -

(1) Ibid, P.231

اللاإدراك الذاتي the self-awareness الذي يعلن عن نفسه في التعبير expression. فكل تعبير يكمن في نسق للقصد الذاتي self-deliberation يحاول الفهم أن يعايشه مرة أخرى⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فإن هذا ليس معناه رفض جادامر لما يمكن أن تتمتع به العلوم الإنسانية من مصداقية ومشروعية مثل العلوم الطبيعية، أو أنه يقلل من أهمية الفهم بالنسبة لتلك العلوم، بل إن ذلك يرجع إلى رفضه الجمع بين فلسفة الحياة وموضوعية الفهم؛ وذلك لأنه يرى، متأثراً في ذلك بهيدجر أن الفهم ذو دلالة أنطولوجية واضحة، وعلى حد تعبيره، فإنه "حالة للأنية Dasein في العالم"⁽²⁾.

ولذلك فإنه يقول: "إن الفهم ليس نموذجاً لخبرة إنسانية أخذ بها في الزمن القديم للروح كما هو الحال عند دلتاي، وليس هو النموذج المنهجي النهائي للفلسفة في مقابل حياة ساذجة تقتصر إلى التأمل، كما هو الحال عند هوسرل. إنه على العكس من ذلك الشكل الأصيل لتحقيق الوجود هناك، ذلك الذي هو وجود في العالم being-in-the world"⁽³⁾.

أضف إلى ذلك أن المنهج العلمي - في نظر جادامر - ليس هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة، فها هو يضع عنواناً لمؤلفه الرئيسي "الحقيقة والمنهج" في إشارة منه إلى أنه منذ البداية يضع فاصلاً بين الحقيقة والمنهج، ثم هو يرى أنه يمكن النظر إلى خبرة مثل خبرة الفن، وكذلك الخبرة بتراث الماضي أي الخبرة التاريخية - بوصفهما يعبران عن الحقيقة بمعزل عن قالب المنهج.

(1) Grondin, Introduction to philosophical Hermeneutics, P.87-88

(2) Gadamer, The problem of historical consciousness, P.129

(3) Truth and method, P.230.

فإذا لم ينظر الإنسان للفهم كموضوع للحكم الجمالي، ولم ينظر للتاريخ كمادة ينشدها لفهم موضوعي لأحداث مضت، وما يتبعه ذلك من وجود مسافة تفصله عن هذين النشاطين، ومن ثم تولد اغترابه عنهما - فإنه في هذه الحالة سيكون مع نشاطين يعبران عن خبراته في مجملها لا عن جزئية منها. وإذا استخدمنا تعبيرات جادامر فإن هذين النشاطين بإمكانهما أن يستوعبا الإنسان ويأسراه، فبإمكانهما أن يعبرا عن تنافيه ذلك الذي لا يستطيع الفكك منه بحكم كونه وجوداً عينياً تاريخياً⁽¹⁾.

وهكذا "ففي تاريخ الهرمينوطيقا يظهر تأكيد هيدجر على الفهم كطابع أساسي basic trait للوجود في العالم بوصفه نقطة تحول فاصلة، فالنظرية الهرمينوطيقية التي كانت تختص فيما سبق بالمنهج تحولت إلى مشكلة أنطولوجية أساسية. ومن خلال جهود جادامر لتأصيل تلك الهرمينوطيقا في الحقيقة والمنهج Truth and Method صار التأكيد على نقطة التحول هذه أساساً للنظر في العلاقة بين الفلسفة والعلوم الإنسانية في الأعوام المائة الأخيرة"⁽²⁾.

بيد أن جادامر ينوّه في كتابه "الحقيقة والمنهج" أيضاً إلى أن ما نادى به هيدجر من طابع أنطولوجي للفهم لم يكن الهدف منه تأسيس هرمينوطيقا تاريخية كتلك التي سعى دلتاي قبل ذلك إلى إقامتها على أسس سيكولوجية، أو التي يرى هو نفسه أنه يمكن وصفها بالتاريخية، ولكن من منطلق غير المنطلق النفسي، فهذا هو يقول: "سوف نحاول تحديد ما إذا كانت راديكالية هيدجر الأنطولوجية تمكنها أن تسهم في تأسيس هرمينوطيقا تاريخية. إن قصد هيدجر هو بلا شك مختلف عن ذلك. ويجب علينا الحذر من أن نستخرج نتائج سريعة من تحليله

(1) See Gadamer, The Universality of the Hermeneutical Problem, P 3ff.

(2) Rodi, frithjof, Hermeneutics and the Meaning of life, P 082

الوجودي لتاريخية الوجود هناك Historicalness of being- there فالتحليل الوجودي للوجود هناك بالنسبة لهيدجر لا يشمل على أي مثال للوجود⁽¹⁾.

حقاً أن هيدجر، فيما يرى جادامر، يذهب إلى أن كوننا كائنات تاريخية إنما يعني "أن تاريخية الوجود هناك في توقعها أو نسيانها هي الشرط لكوننا قاندين على استحضار الماضي"⁽²⁾ غير أن ذلك لا يعني بالنسبة له تأسيس هرمينوطيقا تاريخية؛ وذلك نظراً لأن تركيزه كله كان منصّباً على المعنى الأنطولوجي للوجود الإنساني، وإن كان ذلك للتركيز على المعنى الأنطولوجي يساعد من جهة أخرى - كما يشير جادامر - على أن تتلي الهرمينوطيقا بدلوها فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية.

فمشكلة الهرمينوطيقا يمكنها أن تكتسب إطاراً جديداً من خلال نظرة هيدجر للفهم، وهذا هو ما يوضحه جادامر بأن الفهم عند هيدجر لم يعد مثلاً كان الحال في المدرسة التاريخية - توافقا بين العارف وبين ما هو معروف؛ مما يتيح القول بأهمية النواحي السيكلوجية - في عملية التفسير - كما ذهب إلى ذلك دلتاي، بل صار رؤية لطبيعة خاصة بنمط من الوجود يشترك فيه كلاهما - إذ إنه يوضح أنه لا العارف أو المعروف متاحان بطريقة هرمينوطيقية (عينية)، ولكنهما متاحان من خلال ما هو تاريخي؛ وذلك نظراً لأنهما حالتان لتاريخية الوجود⁽³⁾. وهذا مما يتيح بالفعل دراسة التاريخ، فنحن ندرس التاريخ لأننا - كما يرى هيدجر - تاريخيون⁽⁴⁾.

(1) Truth and method ,P.232

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

ولا تستوقف القدرة على فهم الماضي واستحضاره على تاريخية الوجود الإنساني فحسب، بل إن النظر إلى الفهم كعنصر مميز للعلوم الإنسانية يتوقف عليها أيضاً؛ وذلك لأن البناء العام للفهم يتطلب شكلاً عينياً، وذلك من خلال الفهم التاريخي⁽¹⁾.

ويوضح جادامر ذلك بالاستفادة من أفكار هيدجر بأن استيعاب الوجود الإنساني كمشروع قذف به في العالم ويسعى لتحقيق ذاته، وأنه ليس ثمة إمكانية لكي يستطيع الإنسان أن يتجاوز وقائع وجوده *the facticity of his being*، إنما يتيح للفهم أن يكون فهماً تاريخياً يلتزم بالعادات والتراث⁽²⁾.

ولذلك فإن "التركيب الوجودي للوجود هناك يجد تعبيراً عنه من خلال فهم التراث التاريخي"⁽³⁾.

وعلى ذلك فإن التاريخ بالنسبة لجادامر كيان حي يؤثر في وعينا بذواتنا، وفي وعينا بالعالم من حولنا. فعلى حد قوله: "فإن التاريخ لا ينتمي إلينا، بل نحن للذين ننتمي إليه"⁽⁴⁾.

تلك النظرة إلى التاريخ تتعكس بشكل أساسي على تناول جادامر للتراث الفلسفي. فلفكار الفلسفية فهم كان قدم من قال بها، يمكنها أن تؤثر في طريقة فهمنا لحياتنا، وذلك من خلال حوارنا Conversation مع التراث الفلسفي الذي يمثل في هذه الحالة آخر Other يمكننا أن نقبله، بل أن نتحدث معه شأنه في ذلك شأن أي شخص آخر علينا أن ندخل معه في حوار، وأن نتجانب معه أطراف الحديث من خلال ما نطرحه عليه من أسئلة ومن خلال ما يجيب به عنها.

(1) Ibid,P.234.

(2) See Ibid .

(3) Ibid .

(4) Ibid,P.245.

وهذا هو ما يدعو بالفعل إلى التساؤل عن كيفية الحوار بين وعينا من جانب والتراث الفكري من جانب آخر.

إن جزئية الوعي Consciousness التي استخدمها جادامر في فلسفته الهرمينوطيقية تعد من أهم جزئيات تلك الفلسفة على الرغم من اتفاقه مع هيدجر في الكثير والكثير من الجزئيات، ومنها اتفاقه معه تحديداً في نقده لمصطلح الوعي كما نادى به المثاليون الألمان، ومن ثم رفضه، مثل هيدجر، لقسمة الذات والموضوع تلك التي تعرف الذات الإنسانية نفسها من خلالها، وذلك باتخاذها ذاتها موضوعاً لذاتها. غير أنه لم يتحدث عن التاريخ ووقائعية الوجود بمعزل عن الوعي، وهذا هو ما نلمسه في مؤلفاته ومقالاته على تنوعها في المصطلح الذي نحتة، واستخدمه على نطاق واسع في أعماله، وهو مصطلح الوعي الفعال تاريخياً Wirkungs-schichtliche Bewusstsein. Effective historical Consciousness. وهذا هو الأمر الذي يدعونا إلى مناقشة تأثيره بكل من هيجل وهيدجر.

التاريخ والتناهي الإنساني:

في مقاله "تأمل في رحلة الفلسفة" Reflection on philosophical journey يكتب جادامر فيقول: "إن أول شخص كتب تاريخاً للفلسفة، وآخر شخص يقوم بذلك أيضاً - هو هيجل - فالتاريخ عنده تحقق وتوقف، وذلك بظهور الروح المطلق"⁽¹⁾.

ولذلك فإنه يتساءل: "هل هذا هو حاضرننا؟ هل ما زال هيجل ماثلاً أمامنا؟... هل للمبدأ الأول والآخر الذي يبلغ من خلاله التفكير في الوجود أوجه هو الروح أو العقل؟"⁽²⁾.

(1) Gadamer, Reflection on my philosophical journey, P.39.

(2) Ibid.

وجادامر بالفعل ينقد مفهوم المعرفة الكلية عند هيجل، فليست هناك معرفة مطلقة يصل إليها التاريخ بتحقيق الفكرة، والحقيقة ليست كشفًا كليًا يتحقق بظهور الفكرة الكلية، وهذا هو ما يتضح من وجهة نظره في نظرية هيدجر للحقيقة. فالحقيقة كما يراها هيدجر ليست كشفًا مطلقًا، بل هي كشف لها وحجب أيضًا.

يقول جادامر: "إن هيدجر هو أول فيلسوف منذ هيجل يضعنا أمام إمكانية بديلة وإيجابية... فالحقيقة ليست كشفًا شاملًا يتحقق نموذج بظهور الروح المطلقة لذاته، وإنما يعلمنا هيدجر أن ننظر إليها بوصفها كشفًا unconcealing وحجبًا concealing في آن واحد. فالجهود الكبيرة المبذولة للإيمان في التراث، وهي الجهود التي تجعلنا نعرف أنفسنا المرة تلو الأخرى وقد عبر عنها من خلال كلمات، إنما تتم عن مشكلة، فالذي تم بيانه ليس هو كل شيء، ففي الحقيقة فإن الذي لم يسربه هو الكلمة التي يمكننا أن نتفد إليها"⁽¹⁾.

وجادامر يستفيد من تلك الجزئية عن استحالة الموقف النهائي أو المطلق Absolute، ومن ثم أهمية الكلمة المستترة أو المحجوبة عن الوعي - كما يستفيد من غيرها في حقيقة الأمر - في توضيح ما يقصده بالفلسفة الهرمينوطيقية. فها هو يذكر "إن الفلسفة الهرمينوطيقية كما تصورتها لا تظهر نفسها كموقف "مطلق"، ولكن كطريق من الخبرة. فتواضعها متضمن في حقيقة أنه ليس هناك موقف أعلى نهائي سوى استمرارية المرء مفتتحًا على الحوار"⁽²⁾.

بيد أن نقد جادامر لهيجل - على هذا النحو - لا يمنعه من أن يذهب إلى القول بأن ما يمكن أن يكون من أوجه نقد للمثالية الألمانية والميتافيزيقا

(1) Ibid.

(2) Ibid., P.36.

بشكل عام لا يُنقص من أهمية الميتافيزيقا في وقتنا الحالي؛ ذلك أن تعدّي هيدجر للميتافيزيقا -على سبيل المثال- لم يقلل من أهميتها، بل إنه يرى أن ثمة تشابهاً بين ما ذهب إليه هيدجر وما ذهب إليه هيجل؛ ذلك أن هيجل رغم قوله بالفكرة المطلقة قد تخطى - من جهة أخرى - ذاتية الذات الإنسانية أو على حد تعبيره "كانت قوته التأملية بمثابة وثبة Leap تخطى بها ذاتية الروح الإنسانية"⁽¹⁾.

وكان هذا هو مقصد هيدجر أيضاً فيما يرى جادامر، فهي هو يتساءل "عما إذا كان مقصد هيجل لم يكن هو نفسه مقصد هيدجر (في مرحلته المتأخرة) ومن ثم الابتعاد عن المبدأ المتعالي Transcendental، وهل ذلك لم يكن مقصد هيجل أيضاً؛ وذلك من خلال تخطيه ذلك التوجه إلى الوعي الذاتي - self consciousness. وبالتالي قسمة الذات والموضوع في فلسفة الوعي، لم أن هناك اختلافات ما زالت قائمة؟"⁽²⁾.

وهذا هو ما دفع جادامر إلى أن يتساءل أيضاً عما إذا كان تأثيره بهيدجر هو التأثير الذي اتضح بشكل خاص في الأهمية التي أسندها إلى اللغة، والتي أسندها تبعاً لذلك إلى الطابع الحوارى الذي يحكم صلتنا بالعالم والأشياء - يعني من جهة أخرى أنه قد تجاوز كل ما جاء به هيجل؟ وفي هذا يتساءل: "هل توجهي إلى كلية اللغة وتأكيدي على الطابع اللغوي للنفاذ إلى العالم، وفي كليهما أشارك هيدجر - يمثلان بالفعل خطوة تتجاوز هيجل، أما أنهما يمثلان خطوة لا تتخطاه؟"⁽³⁾.

وجادامر حين يعول بالفعل على الدور الذي يقوم به الآخر the other أو الطرف الثانى في أن حوار thou فإنه يكون بذلك قد أجاب عن هذا التساؤل،

(1) Ibid.

(2) Ibid .

(3) Ibid .

بل أيضاً عن غيره من التساؤلات التي تدور حول الأهمية التي أولاها لهيجل، والتي توضح في الوقت نفسه تميزه واختلافه عن هيدجر رغم استقائته الشديدة من آرائه. ففي أكثر من موضع من مؤلفاته وعلى رأسها بالطبع "الحقيقة والمنهج" نجده يشيد بهيجل؛ وذلك نظراً للأهمية التي أولاها هذا الفيلسوف للآخر، أو للطرف الآخر في الحوار. ولهذا فإنه يذكر "أن النقد الكثير والمتنوع لفلسفة العقل المطلق عن طريق نقاد هيجل، لم يستطع أن يحول دون النتائج المنطقية للتوسط الذاتي الجدلي، dialectical self- mediation الذي وضعه هيجل خاصة في علم ظاهرياته.. ذلك أن الآخر ينبغي ألا يدرك كأخر فحسب من خلال الوعي الذاتي الصرف، ولكن يدرك كطرف ثانٍ في الحوار"⁽¹⁾.

ويدعم وينمي جادامر تلك الجزئية عن أهمية الآخر أو الطرف الثاني في الحوار فنراه يشيد بكيركجور kierkegaard أيضاً فيقول: "طبقاً لكركجور فإن مفهوم الآخر هو الذي يقتحم تركززي حول ذاتي وهو الذي يعطيني شيئاً ما أفهمه"⁽²⁾.

ولقد كان هذا بالفعل مدعاة لاختلاف جادامر مع هيدجر، فقذف throwness الإنسان في عالم كمشروع يتحقق به وجوده إذا استخدمنا تعبيرات هيدجر - ليس هو وحده الذي يدفع الإنسان إلى التخلص من وهم حضوره أمام ذاته وثقته في وعيه، بل إن وجود الآخر في حياة الإنسان وتأثيره فيها من شأنه أن يقضي بدرجة أعلى على تركززه حول ذاته وتوهمه بالوصول إلى وعي كامل بها، ولذلك فإن الطابع اللغوي أو الحواري لعلاقة الإنسان بالآخر يظل هو الأساس في محاولته فهم ذاته كذات متناهية منفعة بما يدور حولها"⁽³⁾، غير أنه

(1) Truth and method ,P.307 .

(2) Reflection,P.46.

(3) Ibid .

يطلو لجادامر أن يصف تناهي الذات الإنسانية بالكلية *universality*؛ وذلك نظراً لأن الحوار الذي لا يقر موقفاً نهائياً يتخذ الإنسان وحده، بل يثبت استمرارية فهمه لذاته من خلال ما يلقيه من أسئلة على الأشخاص والأشياء والعالم من حوله، وما ينشده من إجابات عنها- هو حوار يتسم بالكلية؛ نظراً لأنه لا يصف موقفاً بعينه أو تجربة بعينها، بل يصف التجربة الإنسانية في عمومها⁽¹⁾.

ولذلك صح أن يقال إن استخدام جادامر للفظ كلي غالباً ما يدل لديه على لفظ أنطولوجي *ontological*؛ وذلك نظراً لأنه يرتبط بالمعنى الأنطولوجي للخبرة الإنسانية⁽²⁾، ولكن ماذا عن الصياغة الهرمينوطيقية - إن جاز التعبير - عن فاعلية التاريخ؟ وهي هناك فاعلية للوعي الإنساني على الرغم من هذا التأكيد الشديد على التناهي الإنساني؟

فاعلية التاريخ وفعالية الوعي:

يذهب جادامر في الحقيقة والمنهج إلى أن الفهم *Verstehen* في اللغة الألمانية يعني قدرة عملية *practical ability*، ويضرب لذلك مثلاً بالتعبير الألماني *eg er versteht nicht zu lesen , he can't read* هو لا يستطيع القراءة، يستوي في ذلك أن يكون الفهم في مجال مثل مجال تفسر النصوص والوقوف على تعبيرات الحياة المعاشة في مجال العلم والمعرفة، فمنه تعبيرات مختلفة للحياة المعاشة ومعايير وأنماط مختلفة لفهم الأعمال الصناعية *artifacts* بيد أن الفهم لا يعني فقط الضلوع في شيء أو الإلمام به بشكل جيد *well versed in something*، بل إنه يتضمن أيضاً ما يضيفه الإنسان من ذاته، وما

(1) The Universality of the Problem, P.10ff.

(2) See Grondin, An Introduction to the Hermeneutical philosophy, p.111.

يعبر به عن طريقة تناوله للأشياء، ولذلك فإن الفهم في النهاية هو فهم ذاتي self-understanding. ويصوغ جادامر ذلك بقوله: "إذن فإنه حق في الحالات كلها أن الشخص الذي يفهم، إنما يفهم ذاته (أي) يضعها projecting وفقاً لإمكانياته"⁽¹⁾.

فاهتمام الذات الإنسانية بموضوع ما يحمل توقعاتها expectations حول هذا الموضوع؛ مما يعني أن ثمة تصورات مسبقة preconception أو أحكاماً مسبقة prejudices تمثل عنصراً أساسياً في عملية الفهم.

ولكن من أين يشتق المرء تلك الأحكام المسبقة؟ هل تنشأ لديه لمجرد رغبة أو ميل لفكرة أو معنى ما، أم تنشأ عن سابق خبراته بالحياة؟ وماذا عن الموضوع الذي يهتم به المرء؟ كيف يتفاعل في هذا العدد مع تلك الأحكام المسبقة؟

هل تأتي تلك الأحكام على حساب الموضوع أو الشيء أو للنص أو الأشخاص الذين يتفاعل معهم المرء، أم أن الأولوية تكون لذلك الموضوع أو الشيء أو الشخص؟

يحيل جادامر بالفعل تلك الأحكام المسبقة إلى التاريخ والتراث. فالمرء يستقيها من سابق خبراته، ولذلك فإن التاريخ أو التراث لا يظهران في عملية الفهم بوصفهما عنصرين خارجيين مضافين لعملية الفهم، بل يظهران عضوين ذاتيين أصليين فيها، ولهذا فإن حركة فكرية مثل حركة التنوير Enlightenment قد أخطأت - كما يشير جادامر - بمناداتها عند دراستها للعقل كمرشد وهادٍ وحيد، وتركها الاهتمام بالماضي، وذلك على العكس من الحركة الرومانسية "romanticisin" التي دعت إلى الالتفات إلى أهمية ما

(1) Truth and method ,P.231.

يحملة الماضي من أفكار⁽¹⁾. بل إن مناداة حركة التنوير بالعقل وحده مثلت، في نظر جادامر، حكمًا مسبقًا مثل أي حكم مسبق آخر؛ وذلك لأن التغلب على الأحكام المسبقة كلها ذلك المطلوب الكوني Global لحركة التنوير يثبت أنه هو نفسه حكم مسبق يفتح التغلب عليه الطريق لفهم مناسب لنتائجنا ذلك الذي لا يوسم إنسانيتنا فقط، بل يوسم وعينا التاريخي أيضًا⁽²⁾.

ولكن هل يعني ذلك أن ما هو تاريخي على خلاف مع العقل ويتعارض مع الحرية الإنسانية؟ وهل وعينا بأحكامنا المسبقة يعني من جهة أخرى أن نتنمر على شروط وجودنا التاريخي أو نضحى بها من أجل موضوعية نحرص على التمسك بها؟ يرى جادامر "أننا نقف دائمًا داخل التراث، وهذا ليس نسقًا متواضعًا objectifying؛ إذ إننا لا ندرك ما يقوله التراث كشيء آخر، أو شيء غريب، إنه جزء منا دائمًا، ونموذج أو مثال لمعرفةنا بأنفسنا⁽³⁾. وهو يعلل ذلك بأن منهج العلوم الطبيعية في تناول الأشياء يختلف عن منهج العلوم الإنسانية، فما هو سابق بالنسبة للعالم قبل أن يصل إلى النتيجة النهائية هو مجرد خطوات يمكن نسيانها إذ تتوالى عليها خطوات أخرى، وهذا ما لا يتضمنه منهج العلوم الإنسانية، تلك التي لا تتوقف على فكرة البحث أو التطور، فما سبق من إنجازات تلك العلوم لا يلغي لمجرد قدمه. وإن كان ذلك يتطلب أيضًا أن تعرض تلك العلوم ما قد سبق بطريقة تجعله مؤثرًا في حاضرنا، فالموضوع يلتصق له حياة فقط من خلال الضوء الذي يظهره لنا"⁽⁴⁾. ويرجع ذلك إلى أن مبعث الاهتمام بالتراث في العلوم الإنسانية هو الحاضر واهتماماته⁽⁵⁾.

(1) Ibid, P.241FF.

(2) Ibid, P.244 .

(3) Ibid, P.250 .

(4) Ibid, P.252 .

(5) Ibid, P.293 .

ولتوضيح ذلك يستعين جادامر بمقولة هيجل إن "ما هو كلاسيكي Classical يدل على نفسه ومن ثم فإنه يفسر نفسه أيضاً، فما يدل على نفسه ويفسر نفسه أيضاً ليس بماضٍ بل هو حاضر، أو أن ما يقوله إنما يخاطب به الحاضر خصيصاً⁽¹⁾.

ويلخص جادامر ذلك بقوله: "إن الفهم ليس مثلاً يدل على ذاتية شخص ما، بل هو وضع المرء داخل نسق التراث حيث الماضي والحاضر مندمجان بشكل دائم. وهذا هو ما يجب أن يعبر عنه من خلال النظرة الهرمينوطيقية، تلك التي تبعد تمامًا عن الإثبات عن طريق فكرة النسق أو المنهج"⁽²⁾.

وعلى ذلك فثمة معادلة تتحكم في عملية الفهم، فإذا كان التساؤل عن طبيعة الحقيقة المطروحة من خلال الفهم، فإننا إزاء فهم يريد أن يصل إلى فهم، ذلك أننا كحاضر نريد أن نصل إلى فهم لأنفسنا من خلال فهم ما هو ماضٍ، إننا بتعبير ثالث نؤسس فهمنا على الجمع بين الدراسة التاريخية وما هو حي وحاضر في تراثنا⁽³⁾، مما يعني - كما يقول جادامر - "أن تأثير التراث الحي Living tradition وأثر الدراسة التاريخية لا بد أن يشكلان وحدة Unity"⁽⁴⁾.

إلا أن هذا الاندماج مع التراث أو الانخراط فيه أو تأثرنا بمخاطبته لنا لا يتيح لنا أن نميز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح من أحكامنا المسبقة، إذ إنه لا يمكن النظر في تلك الأحكام نفسها ونحن متأثرون بها غير منفصلين عنها، ولذلك فإنه من الضروري وجود مسافة تفصل بين تلك الأحكام وبين نواتنا، فهل يحقق ذلك على سبيل المثال وجود مسافة زمنية temporal

(1) See Ibid,p.257.

(2) Ibid,p.258.

(3) Weinsheimer,Joel C.Gadamres,Hermenutics,P.177.

(4) Truth and method ,P.251.

distance تفصلنا عن تراث ما؟ هل يقوم الوعي هنا بدوره الذي سبق أنه قام به في تراث المثالية الألمانية، حيث الذات تتخارج عن ذاتها من خلال تكتيك الوعي لكي تعي نشاطها بشكل أوضح؟ هل يستفيد جادامر هنا من هذا التكتيك؟

يبدو بالفعل أن جادامر قد استفاد من وجود مسافة زمنية تفصلنا عن التراث، أي تراث، بل استفاد أيضًا من تراث المثالية الألمانية فيما يتعلق بتكتيك الوعي، فالوعي الإنساني بإمكانه أن يميز أحكامنا المسبقة بخصوص النص نفسه. وهذا هو ما عبر عنه بقوله: "إنها المسافة الزمنية التي يمكنها فقط أن تحل مشكلة الهرمينوطيقا الحرجة critical، وهي تحديدًا تمييز الأحكام المسبقة الصحيحة التي تفهم عن طريقها من غير الصحيحة التي تسيء إلى فهمنا. ومن ثم فإن للعقل للمدرب هرمينوطيقًا يشتمل على وعي تاريخي، إذ إنه سيكون وعيًا بالأحكام المسبقة التي تتحكم في فهمنا بحيث إنه يمكن للنظر إلى النص كمعنى آخر، وأن يحكم عليه في ذاته" (1).

وعلى ذلك "فإن ما يقود إلى الفهم يجب أن يكون شيئًا يؤكد ذاته نفسها من خلال ما يملكه من مصداقية خاصة به" (2).

ويضيف جادامر بأننا نشرع في الفهم حين يخاطبنا us address شيء ما حتى لو أدى ذلك إلى أن نعلق suspen أحكامنا للمسبقة، وذلك لأن هذا التعطيل يتيح لنا أيضًا أن نبقى دائمًا على إمكانياتنا في التساؤل والاستفسار والمناقشة، وإن كان ذلك لا يعني - بطبيعة الحال - أن ندع أحكامنا المسبقة، أو أن نعتمد على آراء الآخرين بدلًا منها، إذ إننا لا يمكننا أن نتخلي عن تاريخنا (3).

(1) Ibid, P.266.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

فنحن إذن أمام موضوع لاهتمامنا يعبر من جهة عن حقيقة تاريخية، ويعبر من جهة أخرى عن فهمنا واستيعابنا لها، ولا يمكننا أن نقف على فعالية التاريخ إلا من خلال الجمع بين هذين الجانبين، أي الحقيقة التاريخية والفهم التاريخي.

ولكن ما الذي تعنيه فعالية التاريخ من خلال عملية الفهم؟ إن تعبير فعالية التاريخ الذي استخدمه جادامر Wirkungsgeschichte كلمة مركبة من كلمتين الأولى أثر أو فعالية Winkung والأخرى تاريخ geschichichte.

أما عن كلمة Winkung فإن لها علاقة بالفعل Wirken بمعنى نسج knite، صنع weave، دمج Integrate، وأما Wirklichen، فبمعنى يحقق Realize، يجعله حقيقياً Make real وأما wirklichkeit بمعنى حقيقة واقعية Reality أو فاعلية Actuality⁽¹⁾.

فالتاريخ يرتبط إذن بمعاني التحقق والتأثير والفعالية والدمج، ذلك أن "فعالية التاريخ هي حقيقة التاريخ بوصفه تاريخاً للتحقيق، فالأعمال الحقيقية هي تلك التي في تحقيقها لذاتها تؤثر. وتاريخ شيء ما يؤثر أو التاريخ في تأثيره هو ما تعنيه فعالية التاريخ.. أي أن تأثير التاريخ - تحققه، حقيقته - هي التاريخ نفسه"⁽²⁾.

ويذهب جادامر إلى أن هذا المعنى عن فعالية التاريخ ليس جديداً؛ ففي القرن التاسع عشر ظهر الاهتمام بدراسة التفسيرات المختلفة لعمل ما، وتتبع تأثيراته أو كيفية استقبال الآخرين له⁽³⁾.

(1) Weinsheimer, Joel C., Gadamer's Hermeneutics, P.177.

(2) Ibid .

(3) See truth and method ,P.267ff .

هنا ينوّه جادامر إلى أن فعالية التاريخ مستمرة سواء كنا مدرّكين لها أم غير مدرّكين، ففوّة ذلك التاريخ الفعال Effective history لا تعتمد على كونها مدرّكة، وهذه هي فوّة التاريخ فوق كلّ وعي إنساني متناهٍ⁽¹⁾.

فعلى الرغم من أن الوعي بتأثير التاريخ هو مطلب لمن هم مولعون بالمنهج وبالعلم، فإنه لا يتحقّق بشكل كامل. يقول جادامر: "فالقول بأننا أصبحنا مدرّكين تماماً للتاريخ الفعال هو قول فيه صلف تماماً، مثلما تحدث هيجل عن معرفة مطلقة يعبر التاريخ عن ذاته من خلالها؛ وبذلك يصعد إلى مستوى المفهوم"⁽²⁾.

ولا يرجع جادامر عدم قدرتنا على الوعي التام بتأثير التاريخ إلى قصور في وعينا، بل يرجعه إلى أن الإنسان يجد نفسه منخرطاً في موقف تاريخي يستحيل عليه أن ينفصل عنه؛ وذلك نظراً "لأن فكرة الموقف تعني أنه ليس بإمكاننا أن نقف خارجه، وبالتالي أن نكون قادرين على أن نحصل على لية معرفة موضوعية عنه"⁽³⁾.

وهذا هو ما يوضحه جادامر أيضاً بقوله: "أن تعيش تاريخياً فإن هذا معناه أنك لن تكون كاملاً أبداً، فكل المعرفة الذاتية تتبع مما هو معطى تاريخياً، أو ما نطلق عليه مع هيجل الجوهر، فذلك هو أساس كلّ معنى ذاتي أو اتجاه ذاتي، ومن ثم فإن ذلك المعنى وهذا الاتجاه يوصفان، ويجد أن إمكانية فهم أي تراث، أيّا كان في مصطلحات عن تفرد التاريخ"⁽⁴⁾.

(1) Ibid, P.268.

(2) Ibid.

(3) Ibid, P.269.

(4) Ibid.

والمرء بذلك سواء كان قارئاً أو مؤرخاً أو فيلسوفا يجد نفسه في موقف هرمينوطيقي لا يمكنه أن يتخطاه بحكم أنه ليس بإمكانه أن يتجاوز التاريخ، ولذلك فإن ما يعنيه في الحاضر هو ذلك الموقف الذي يعايشه، والذي يعبر عن حدود إدراكه، ولهذا يستخدم جادامر لفظ أفق Horizon؛ ليشير به إلى مدى الرؤية التي تشمل كل شيء يمكن النظر إليه من نقطة جزئية⁽¹⁾.

والمرء قد يتمتع بسعة الأفق وقد لا يتمتع، أما الذي لا يمتلك سعة الأفق فإنه لا يستطيع النفاذ إلى ما هو أبعد من موضع قدميه، في حين أن الذي يمتلكها يرى ما هو أبعد وأكثر قيمة ودلالة. يقول جادامر: "فالمرء الذي ليس لديه أفق لا يتمتع برؤية واضحة؛ ومن ثم فإنه يضخم ما هو قريب منه، وعلى العكس، فإن تكون ذا أفق فإن ذلك لا يعني أن تحدد بما هو قريب، ولكن أن تكون قادراً على رؤية ما وراءه، فالمرء الذي لديه أفق يعرف الدلالة النسبية لكل شيء داخل ذلك الأفق أو المدى من الإدراك، سواء كان قريباً أم بعيداً، صغيراً أم كبيراً"⁽²⁾.

ويطبق جادامر هذا على الموقف الهرمينوطيقي، "فما ينجزه الموقف الهرمينوطيقي إنما يعني الوقوف على الأفق الأمتل لبحت الأسئلة التي يستدعيها الصدام بالتراث"⁽³⁾.

هكذا أوضح جادامر ذلك أنه يمكن استخدام مصطلح الأفق "لكي يشير إلى الطريقة التي تتقيد بها تحديدات الفكر المتناهية، وطبيعة القانون الذي يحكم مدى رؤيته"⁽⁴⁾ في مجال الفهم التاريخي أيضاً.

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Ibid .

(4) Ibid .

ففي هذا المجال يمكننا- كما يشير جادامر- أن نتحدث عن وعي تاريخي يرى الماضي من خلال مصطلحاته فقط لا من خلال الأفكار المعاصرة، وتلك طريقة لفهم ما هو تاريخي؛ ذلك أن الدخول - على سبيل المثال- في حوار مع آخرين يفترض أن نتفهم موقفهم، أي أن نضع أنفسنا في نفس الموقف الموجود فيه هؤلاء الأفراد، بصرف النظر عما إذا كنا نتفق معهم في موقفهم هذا أم نختلف (1).

وعلى ذلك فإننا بالفعل إزاء آفاق مختلفة، فهناك مدى رؤية لما نحياه بالفعل، وهناك مدى رؤية آخر للموقف التاريخي الذي نصنع أنفسنا من خلاله. ولذلك فإن الأفق هو دائماً في حركة Motion. فالمرء لا يستطيع أن يقف في حدود ما يحياه فقط، كما أنه لا يستطيع أن ينكب فقط على ما ينخرط فيه أو يضع نفسه داخله، "فالأفق هو بالأحرى شيء نتحرك من خلاله، وهو يتحرك معنا... (ولهذا) فإن تاريخنا الخاص بنا، والتاريخ الخاص بالآخرين، ذلك الذي يتجه إليه وعينا التاريخي- إنما يساعدان في تشكيل ذلك الأفق المتحرك الذي تعيش خارجه الحياة الإنسانية دوماً، والذي تحدده كثرات" (2).

فالأفق وسيلة لاستيعاب الموقف التاريخي؛ ذلك أننا لا نضع أنفسنا في موقف تاريخي من أجل أن نتعرف على كيفية رؤيتنا للأشياء، بل إننا على خلاف ذلك نتخذ من تلك الرؤية وسيلة كي نضع أنفسنا داخل ذلك الموقف التاريخي (3).

(1) See Ibid,P.270 .

(2) Ibid,P.271 . .

(3) Ibid .

نفس الموقف الموجود فيه هؤلاء الأفراد، بصرف النظر عما إذا كنا نتفق معهم في موقفهم هذا أم نختلف (١).

وعلى ذلك فإننا بالفعل إزاء آفاق مختلفة، فهناك مدى رؤية لما نحياه بالفعل، وهناك مدى رؤية آخر للموقف التاريخي الذي نصنع أنفسنا من خلاله.

ولذلك فإن الأفق هو دائماً في حركة Motion. فالمرء لا يستطيع أن يقف في حدود ما يحياه فقط، كما أنه لا يستطيع أن ينكب فقط على ما ينخرط فيه أو يضع نفسه داخله، "فالأفق هو بالأحرى شيء نتحرك من خلاله، وهو يتحرك معنا... (ولهذا) فإن تاريخنا الخاص بنا، والتاريخ الخاص بالآخرين، ذلك الذي يتجه إليه وعينا التاريخي - إنما يساعدان في تشكيل ذلك الأفق المتحرك الذي تعيش خارجه الحياة الإنسانية دوماً، والذي تحدده كثرات" (٢).

فالأفق وسيلة لاستيعاب الموقف التاريخي؛ ذلك أننا لا نضع أنفسنا في موقف تاريخي من أجل أن نتعرف على كيفية رؤيتنا للأشياء، بل إننا على خلاف ذلك نتخذ من تلك الرؤية وسيلة كي نضع أنفسنا داخل ذلك الموقف التاريخي (٣).

وخلاصة القول إذن أن رؤيتنا الحاضرة للأشياء أو ما يشكل أفق الحاضر لا تتشكل بمعزل عن أفق الماضي؛ ولذلك "فإن الفهم باستمرار هو اندماج Fusion هذين الأفقين اللذين نتخيل أنهما يعيشان كل على حدة" (٤).

(١) See Ibid, P. ٢٧٠ .

(٢) Ibid, P. ٢٧١ .

(٣) Ibid .

(٤) Ibid, P. ٢٧٣ .

وهذا مما دفع جادامر إلى أن يتساءل عن ضرورة القول بهذا الأفق المتميز عن غيره، وما يقتضيه ذلك من القول بتفاعله وتداخله، بل المناداة أيضا بضرورة دمجه، فلماذا لا نتحدث منذ البداية عن أفق تاريخي واحد؟

ويجيب جادامر عن تساؤله بأن وعينا الحاضر بالموقف التاريخي هو في حقيقته وعي بالتوتر *tension* الحادث بين النص والحاضر، ولذلك فإن المهمة الهرمينوطيقية - على حد قوله - ليست في إخفاء ذلك التوتر من خلال محاولة الوصول إلى محاولة إدغام ساذج *naive assimilation*، بل في إظهاره بشكل واع... فالوعي التاريخي على إدراك تمامًا بأخريته *otherness* ولذلك فإنه يميز أفق التراث عن أفقه^(١).

إلا أن ذلك الوعي الموسوم عند جادامر بالفعالية لا يقف عند حدود تمييز الرؤية الحاضرة للأشياء عن فعالية التراث واستمراريته، بل إنه كوعي يعيد بناء ما يميزه وكأنه يعود بذلك إلى ذاته مرة أخرى. يقول جادامر: "إن (الوعي التاريخي نفسه) كما نحاول أن نبين ذلك شيء يفصل نفسه عن استمرارية التراث، ولهذا فإنه يعيد بناء ما يميزه في وحدة الأفق التاريخي المنشودة، من أجل أن يعود إلى ذاته مرة أخرى"^(٢).

هذا الحديث عن التوتر الحادث بين رؤيتنا الحاضر والتراث، وما يلعبه الوعي من دور في الدمج بينهما، وما يتعلق بذلك من حديث جادامر عن عودة الوعي إلى ذاته مرة أخرى - يذكرنا على الفور بحديث هيجل عن الفكرة الكلية، وكيف أنها تغترب عن ذاتها بأن تفصل ذاتها عن ذاتها ثم تعود إلى ذاتها في نهاية المطاف، وجادامر بذلك يظهر متأثرًا بالمثالية الألمانية وهيجل تحديدًا، رغم نقده كما بينا من قبل لتكنيك الوعي وقسمة الذات والموضوع. فإن كان

(١) Ibid .

(٢) Ibid.

جادامر ينقد ذلك التكنيك فإنه من جهة أخرى يستفيد منه مثله مثل العديد من الأفكار الهيجلية الأخرى، وهو يوضح بذلك بأن انتقاده للطابع العام للمثالية الألمانية، وهيجل على وجه الخصوص - لا يحول دون الإشادة ببعض أفكارها بل استخدامها إن أمكن ذلك أيضاً^(١).

إن فإن الوعي التاريخي الفعال هو في حقيقة الأمر وعي بانندماج الأفق، بل إنه يدل أيضاً على استخدام application النص لكي يكون مفهوماً في الموقف الراهن للمفسر^(٢).

فالفهم كما يراه جادامر هو في الأساس تاريخي، كما هو الحال في العلوم الإنسانية، وهو يرجع ذلك إلى أنه من "خلال تلك العلوم يفهم النص فقط إذا فهم بطرق مختلفة في كل وقت"^(٣)؛ لذلك فإنه يقول: "فالفهم نفسه يبرهن على أنه حدث Event، ومهمة الهرمينوطيقا.. تشمل على التساؤل عن أي نوع من الفهم، أي نوع من العلم ذلك الذي يتغير بتغير التاريخ"^(٤).

ويقول أيضاً: "فقضيّتنا هي أن الهرمينوطيقا التاريخية لديها مهمة تتجزأها، وذلك لأنها تخدم صحة المعنى، فهي بشكل واضح وواع تتخطى فجوة الزمن، تلك التي تفصل المفسر عن النص، وتتغلب على اغتراب المعنى الذي "يعتري النص"^(٥).

(١) Ibid, P. ٢٧٤ .

(٢) Ibid .

(٣) Ibid, P. ٢٧٦.

(٤) Ibid.

(٥) Ibid, P. ٢٧٨.

"إن الأجيال المستقبلية سوف تفهم بطرق مختلفة ما يقرؤه (المرء) في النص. وما هو صحيح بالنسبة لكل قارئ هو صحيح أيضا بالنسبة للمؤرخ. فالمؤرخ مهتم أساسا بتراث التاريخي كله، وعليه أن يوجد بينه وبين وجوده الحاضر إذا أراد أن يفهمه، وبذلك يمكنه أن يجعل هذا النص مفتحا على المستقبل"^(١).

ولكن ألا يعني ذلك أن ثمة دمجا كاملا للتاريخ والحقيقة؟ إن جادامر يعود فيتساءل من جديد عن أثر الفلسفة الهيجلية، ويتضح هذا في قوله: "إننا يجب أن نسأل... ما إذا كنا قادرين على أن نبقى أنفسنا أحرارا من الادعاءات الميتافيزيقية للفلسفة التأملية؛ ومن ثم نرضى للخبرة الهرمينوطيقية بالموافقة على نقد الهيجليين الصغار لهيجل، ذلك النقد الذي أثبت أهميته تاريخيا"^(٢).

وتأتي الإجابة سريعا إذ يجب الفصل في نظره بين ما أسماه بالنتائج المتعجرفة للمثالية التأملية وبين حقيقة فكر هيجل، ذلك الذي لم يستطع النقد أن يتغلبوا على قوته"^(٣).

ولكن ما تلك الحقيقة الكامنة في فكر هيجل "والمخفية وراء سطوة التأمل"^(٤). على حد قوله؟ إنها كامنة بالفعل - كما يشير جادامر - في نقد هيجل لما قام به كانط من فصل بين عالم الظواهر وعالم الشيء في ذاته. فذلك الفصل بين هذين العالمين فيه إثبات أن العقل قد احتوى ذلك التمييز بين الظاهرة والشيء في ذاته وأنه قد تجاوزه، "فالعقل يؤسس حده، وذلك لأنه يدل على أن العقل تجاوز بالفعل ذلك الحد؛ مما يجعل الحد حدا هو أنه يتضمن الاعتراف بما

(١) Ibid, P. ٣٠٤.

(٢) Ibid, P. ٣٠٦.

(٣) Ibid, P. ٣٠٧.

(٤) Ibid.

يقع على جانبيه. أنه جدل للحد الذي يوجد من خلال كونه متحركاً. وبالتالي فإن تمييز الشيء في ذاته ضد مظهره هو تمييز بالنسبة لنا فقط^(١).

ولذلك دلالتة بالنسبة لجادامر، فذلك "التوسط الجدلي" الذي أرساه هيجل يوضح "أنه لا يجب النظر إلى الآخر كآخر يمكن استيعابه من خلال الوعي الذاتي، ولكنه كطرف ثانٍ في الحوار.. وذلك لأن النسق الجدلي لظاهريات العقل phenomenology of mind لا يتحدد بشيء أكثر من كونه مشكلة لاستيعاب أو إدراك الطرف الثاني"^(٢). فالوعي الذاتي بالنسبة لهيجل يحصل على حقيقة وعيه الذاتي من خلال استيعابه للشخص الآخر^(٣).

وجادامر بذلك يؤكد في مؤلفه "الحقيقة والمنهج" وفي غيره من المؤلفات والمقالات على أن إدراك الإنسان لذاته لا يتحقق من خلال شروط يملئها هو على التجربة بواسطة وعيه الذاتي، بل إنه يتحقق من خلال حوار مع الآخر؛ الأمر الذي يثبت تناميّه في النهاية. ولذلك فإنه يذهب إلى "أن فلسفة هيجل عن العقل (التي) تدعو إلى تحقيق الدمج الكلي Total fusion للتاريخ مع الحاضر، لا تتعلق بمذهب صوري تأملي، ولكنها تتعلق بالشيء نفسه كما هو نحن. فهيجل قد ناقش من خلال اتجاه تاريخي فيه جذور للهرمينوطيقا"^(٤).

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid, P. ٣٠٨.

(٤) Ibid, P. ٣١٠.

ويقول أيضا: "إن الاتجاه التاريخي للعقل ليس تأملا ذاتيا self-reflection أو مجرد جدل صوري للاغتراب الذاتي يمكن تجاوزه ولكنه خبرة، إنها تخبر بالحقيقة وهي نفسها حقيقة" (١).

وعلى ذلك فإن الفلسفة الهرمينوطيقية يمكنها أن "تتوأم" - على حد تعبير جادامر - مع فلسفة هيجل مثلما هي تتفق في كثير من جزئياتها - كما رأينا - مع فلسفة هيدجر، فكلتا الفلسفتين الهرمينوطيقية والهيكلية تتفقان في القول بالدمج بين التاريخ والحاضر، وكلتاها تتفقان أيضا في القول بالنهاي الإنساني، وهو التناهي الذي يتحقق عن طريق الحوار مع طرف آخر، سواء كان شخصا أم شيئا أم تراثا، وليس من خلال التوقع داخل شروط الذات، كما هو الحال في الفلسفة المثالية التأملية، أو من خلال مجرد الوعي بوجود الإنسان كمشروع يتحقق بتحقيق إمكانياته كما هو الحال في فلسفة هيدجر، وهو ما بينه جادامر في إحدى مقالاته كما ذكرنا ذلك آنفاً.

ولعل ذلك يوضح أن ما ذهب إليه جادامر من القول بفاعلية التاريخ كما اتضحت بشكل خاص في الأحكام المسبقة التي تزخر بها ذات الإنسان، وهو بصدد الإطلاع على تراث ما - لا يتعارض مع القول بفعالية الوعي ممثلة هذه المرة في مفهوم الأفق الذي يدمج بين نشاط الماضي والحاضر ويستشرف المستقبل.

(١) Ibid.

المراجع

- ١- Gadamer, hans Georg, the problem of Historical Consciousness, in Interpretive Social Science .Edited by Paul Rabinow and William M.Sullivan. Berkeley ,Los Anglos, London : University of California Press, ١٩٧٩.
- ٢ - Gadamer , Reflection on My Philosophical Journey, in the Philosophy of Hans – Georg Gadamer , Edited by Lewis Edwin Hahn, The Library of Living Philosophical, volume xiv, ١٩٩٧.
- ٣- Gadamer the Universality of the Hermeneutical Problem in Philosophical Hermeneutics, Edited and Traslated by David E.linge.Berkeley : University of the California Press ١٩٧٦.
- ٤- Gadamer Truth and Method , Translated and Edited by Gorrett Banden and John Cumming. New York .Continuum, ١٩٧٥.
- ٥- Grandin, Jean, Introduction to phiosophical Hermeneutics, Translated by Joel Weinsheimer. New York and London: Yale University Press, ١٩٩٤.
- ٦- Rodi, Frithjof, Hermeneutics, and the Meaning of life: A Critique of Gadamer's Interpretation of Dilthey , Edited by Hugh J.Silverman and Don Ibde state University of New York press , ١٩٨٥.

٧-Weinsheimer, Joel C.,Gadamer's Hermeneutics: A Reading of Truth and Method. New Haven and London: Yale University press, ١٩٨٥.